ارفعوا أيديكم عن الإصلاحيين

واشنطن / مجدي خليل

في كتابه "طريق مصر للقدس" كتب د. بطرس غالي: "في مصر من العصور الفرعونية حتى اليوم، مازالت التقاليد تمجد الحاكم، فالمرء إما أن يكون من الحكام أو لا شيء، وبالتالي أعلى منصب يطمح إليه الفرد هو خدمة الحاكم". لعل هذه النصيحة الواضحة كانت أمام المجموعة الإصلاحية، في لجنة السياسات بالحزب الوطني مثل عبد المنعم سعيد، وأسامة الغزالي حرب، وهالة مصطفي وغيرهم، وبالمناسبة معظمهم كانوا تلاميذ للدكتور بطرس بطرس غالي سواء في كلية الاقتصاد بجامعة القاهرة أو في مجلة السياسة الدولية. ووجدوها فرصة مناسبة أن يحققوا لمصر شيئا من خلال رؤياهم الإصلاحية ويحققوا لأنفسهم أيضا قفزة ونقلة نوعية من خلال اقترابهم من الرئيس ونجله، واعتبروا ذلك نافذة جيدة فتحها لهم جمال مبارك بعد أن أغلق أسامة الباز ومجموعة الرئيس العتيق الباب أمام أي وجوه جديدة لصالح شلة لازمته منذ بداية حكمه حتى ظهرابنه على الساحة السياسية.

الأزمة بدأت عندما شعرت المجموعة الإصلاحية أنها لم تحقق أياً من أهدافها داخل لجنة السياسات، فرؤيتهم الإصلاحية استخدمت اجراء تجميلياً وخاصة أمام الغرب، ولكن الأهم أن لجنة السياسات لم تحقق لهم أياً من طموحاتهم الشخصية، وكانت اللحظة المؤلمة لهذه المجموعة عند تعيين القيادات الصحفية في العام الماضي وجاءت في معظمها من الكفاءات المتدنية والأقل منهم كفاءة بمراحل، ولكن الأخطر اتضح أن المعيار الأهم في التعيين هو العلاقة بأجهزة الأمن في درجاتها الدنيا، أي صبية الأجهزة الأمنية وكتبة التقارير، والذين يدافعون عن النظام بشكل فج صبياني منفر.

في حوار لجريدة العربي الناصري عدد "٩٦٨" في تموز ٢٠٠٥ سئل أسامة الغزالي حرب لماذا لم تجلس على مقد حسنين هيكل في التغييرات الصحفية الأخيرة؟ وكانت إجابته بمرارة: يسأل في هذا الذين اتخذوا القرار. وفي حديثه مع الاسوشيتدبرس قال أسامة الغزالي حرب بعد استقالته: عندما انضممت لهذه اللجنة كنت أعتقد أنها تنوي إجراء عملية إصلاح ديموقراطي حقيقي ولكن اتضح أن الأمور تسير في اتجاه آخر تماما. قدم حرب استقالته معلنا لا يمكن أن نبقى كمجموعة إصلاحية كالسندويتش محشورين بين الحزب الحاكم والأخوان المسلمين.

وفي نفس الوقت وجهت هالة مصطفي رئيس تحرير فصلية الديموقراطية انتقادات أكثر حدة وصراحة للجنة السياسات،والتي لا تزال عضوا فيها، معتبرة أنها تخضع لسيطرة شلة ترتبط بشكل مباشر بنجل الرئيس، وانتقادات أخف لهجة لبطء مسيرة الإصلاح وبيروقراطية الدولة جاءت من عبد المنعم سعيد والذي مازال يحدوه الأمل بإشراكه بشكل أو بآخر في الحكم وتعويضه عن التجاهل السابق.

طبعا لم يكن من المتوقع أن يسكت إعلاميو الحكومة وفرسان أجهزتها الأمنية على هذه الانتقادات، فشنوا حملة على مجموعة الإصلاحيين في لجنة السياسات وقيل أن هالة مصطفي اشتكت لوزيرة الخارجية الأمريكية في القاهرة بأن أجهزة الإعلام الحكومية في مصر أصبحت مسخرة لتشويه صورة الإصلاحيين والمثقفين الأحرار المطالبين بالإصلاح الحقيقي.

كان أعنف هجوم هو الهجوم الموجه ضد هالة مصطفي وفي الجريدة التي يعتبرها البعض لسان حال لجنة السياسات والأجهزة الأمنية المرتبطة بأهدافها وهي" جريدة روزاليوسف اليومية"، والتي يتردد أنها ممولة من أحمد عز ملك احتكار الحديد والأكثر قربا من من نجل الرئيس.

وضمن سلسلة الهجمات على هالة مصطفي كانت أعنف سلسلة مقالات هي التي كتبها عمرو عبد السميع في خمس حلقات من ٢٣ – 27 ايار الماضي تحت عنوان "الهالة طين"، معللا الهجوم على هالة لأنها قبلت دعوة أن تكون باحثاً زائراً لمدة شهر خلال ايار الماضى في معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، ولإنه نشر لها في نفس الوقت ورقة بحثية عن "الديمقراطية الليبرالية" في مؤسسة الدفاع عن الديموقراطية في واشنطن F.D.D..

وقد استفزتني مقالات عمرو عبد السميع لما تحويه من مغالطات ولغة جارحة وشتائم تعد تطاولاً يعاقب عليه القانون، ويكفي عنوانها والذي يعكس شكل الانحدار الذي تردت إليه لغة الصحافة المصرية، ولغة من يعتبرون أنفسهم مثقفين.

أولا: يستهل عمرو عبد السميع مقالاته بمعلومة غير صحيحة ومغالطة منهجية، فيقول أن رموز معهد واشنطن هم مارتن أنديك ودانييل بايبس والحقيقة أن أياً منهما لا يعمل في معهد واشنطن، حيث أن بايبس يرأس منتدى الشرق الأوسط في فلادليفيا، وربما أيضا هو خلط بين مارتن أنديك ودينيس روس فالذي يعمل في معهد واشنطن هو دينيس روس مساعد وزير الخارجية في عهد كلينتون ومؤلف كتاب "السلام المفقود". وقد اختار عمرو عبد السميع اسم بايبس ليقول أن هذا المعهد يضم رموز اليمين اليهودي الداعم لإسرائيل، وهذه حقيقة معروفة دون تقديم معلومات غير صحيحة، ولكن اطمأنَ عمرو أن هالة ليست الأولى التي تزور معهد واشنطن ولن تكون الأخيرة فهناك مصريون كثيرون جاءوا ضيوفا على معهد واشنطن منهم أسماء قريبة من السلطة في مصر، وشخصيات فلسطينية قادمة من رام الله، والذي أحب أن أوضحه أن واشنطن مجتمع مكشوف لا تختفي فيه شاردة ولا واردة وينطبق عليها وصف بطرس غالي "بيت من زجاج"، ففي نفس وقت زيارة هالة كان هناك وفد من المجلس المصري للشؤون الخارجية يزور واشنطن يضم السفراء عبد الرؤوف الريدي ومحمد شاكر والسيدة أنيسة عصام حسونة وقد اتصلوا برموز معهد واشنطن أنفسهم بل وأكثرهم تشدداً مثل ديفيد ماكوفسكي وطلبوا منهم أن يتوسط لهم لترتيب بعض اللقاءات والمقابلات في واشنطن، والذي اتصل بديفيد هو وليد محمود عبد الناصر من السفارة المصرية بواشنطن. بل وأقول أكثر من هذا أن السفير نبيل فهمي يجري أيضا اتصالات بشخصيات من معهد واشنطن وشخصيات يهودية أخرى في واشنطن لتتوسط لدى صحيفة واشنطن بوست والكاتب جاكسون ديل لتهدئة حدة انتقاداتهم للنظام المصري، والرئيس مبارك في كل زياراته يحرص على لقاء الرموز اليهودية ومنهم أعضاء الايباك ومعهد واشنطن والوكالة اليهودية والكونجرس اليهودي وكل الأطياف اليهودية في أمريكا، بل وأقول لك أكثر من هذا أن شارون قبل مرضه توسط لتهدئة النفور في العلاقات المصرية الأمريكية بناء على طلب النظام المصري ولذلك وصفه الرئيس مبارك إنه رجل دولة وقادر على صنع السلام.

أما المغالطة المنهجية فيقول ان هالة استدعيت لمعهد واشنطن -لاحظ كلمة استدعيت- من أجل الورقة التي تقدمت بها إلى مؤسسة الدفاع عن الديموقراطية ونشرت في وقت وجودها في واشنطن. المفروض أن ألف باء من يعرفون سياسة نشر الأبحاث في الغرب أنها تأخذ شهورا وقد تصل لأكثر من سنة من بدء الموافقة على البحث حتى اعتماد نسخته النهائية للنشر مرورا بسلسلة من التعديلات قبل أن يظهر في شكله النهائي، وقد نشرت بحثا في Middle East Review Of International Affairs في آذار الماضي أستغرق أكثر من أربعة أشهر قبل نشره، وبحث آخر لمجلة Contemporary Review البريطانية سيصدر في سبتمبر القادم استغرق ستة أشهر من لحظة إرساله حتى تحديد موعد نشره، بل وقال لي مسؤول التحرير في مجلة فورين افيرزمؤخرا Foreign Affairs أن قائمة الأنتظار لديه أكثر من سنة، فكيف تكون هالة في زيارة لمعهد واشنطن وتنشر بحثاً في معهد آخر في نفس الوقت هل يعقل هذا؟! ولكن الأرجح كما هو متبع أن تكون أرسلت البحث قبل عدة أشهر ونشر بالمصادفة أثناء وجودها في واشنطن.

ثانيا:يقول عمرو عبد السميع أنه حصل على ورقة هالة مصطفي التي علق عليها في مقالاته من زملائها في مجلة "الديموقراطية"،هل يمكن أن يصدق أحد هذا؟! أن يتصل العاملون في مكتب هالة بعمرو عبد السميع بالذات في مصيفه في برج العرب ليقولوا له ألحق هالة كتبت ورقة عن الليبرالية الديموقراطية أرجوك علق عليها!!؟. إن الجهة التي طلبت منه مهاجمة هالة بهذه القسوة والاستفزاز واللاموضوعية هي التي أرسلت له الورقة لتكون تكئة لينهال بشتائمه على هالة. وهل عمرو عبد السميع يقرأ ويتابع كل شيء حتى يعرف أن هالة قدمت ورقة لمؤسسة الدفاع عن الديموقراطية؟ والتي ربما سمع عنها لأول مرة من أولئك الذين أرسلوا وكتبوا له المعلومات التي وصلته في مصيفه في برج العرب.

وربما هذا يقودني إلى قصة طريفة، ففي عام ٩٩ نشرت كتابي "أقباط المهجر" وكان عمرو وقتها مديرا لمكتب الأهرام في واشنطن، وكنت قد قرأت له كتاباً بعنوان " الأقباط والرقم الصعب.. حوارات حول المستقبل" هو عبارة عن مجموعة، حوارات قد أجراها مع عدد من الأقباط، فقلت أن المسألة تستحق أن أرسل له نسخة من كتابي كإهداء وكنت وقتها أقيم في نيويورك، وعلمت بعد ذلك من صديق مصري أمريكي هو محمود خليل، والذي كان يعمل في مكتب الأهرام بنيويورك أن عمرو أرسل الكتاب ومعه طبعا ملاحظاته إلى مسؤول المخابرات المصرية ببعثة مصر بنيويورك، وقال لي محمود أنتبه فهم يسألون عنك وعن نشاطك، فقلت له: (ايه الخيبة دي منه)، وقد سألوني عن تفاصيل عنك وعن فالكتاب مطبوع في القاهرة وتوزعه مؤسسة الأهرام التي يعمل فيها عمرو وأنا حياتي كلها مكشوفة تماما ولا تستحق من عمرو أو غيره كتابة تقرير أو خلافه ولم أفعل شيئا في حياتي يخالف ضميري الوطني أو يضر ببلدي مصر، وبالمناسبة تم فصل محمود خليل بعد ذلك من الأهرام.

ثالثا: تمتلئ سلسلة مقالات عمرو عبد السميع عن هالة مصطفي بالشتائم والاتهامات، وهي سلسلة من الردح وليست نقدا لورقة علمية، وسأنقل للقارئ مقتطفات من هذه الشتائم حتى يعرف إلى أين وصلنا:" يواصل أسامة الغزالي خلع ملابس ارتباطه الوطني في حالة ستربتيز سياسي.. مشهد ساقط ولكن الأكثر سقوطا منه هو ادعاء هالة مصطفي لدوائر أمريكية أيضا أن أجهزة الأمن المصرية تراقب كل شاردة وواردة تأتيها"،"تبغي هالة أن تتحول الديموقراطية إلى عمل سري (على القد) بين السيد الأمريكي وبعض أفراد النخبة السياسية بالضبط مثل القعدات التي تدبر من بعض النسوة الساقطات لثري عربي بغية استلاب فلوسه"، " أن على بعض الأغبياء في أمريكا الذين ينصتون إلى بلاهات أو عباطات هالة مصطفي أن يعرفوا أن هناك معايير للإصلاح تختلف من دولة إلى أخرى"،" أن أجهزة الأمن تركت هالة تشقشق وتزقزق.. وهي حرة أن تنشئ ما تراه من علاقات عامة أو شخصية، حتى مع السفير الأمريكي السابق ديفيد وولش والتي وصلت آفاقا غير مسبوقة"!!، "مجرد كلب ينتظر قرار التعيين من الأمريكان وكل مهمته أن ينبح في مواجهة أعدائها أو يتمسح تحت قدميها برقاعة"، "أشير إليك يا ست هالة يا من احترفت كذبا، ادعاء الخوف والارتعاش أمام الأمريكيين مما تدعينه من ملاحقات أمنية تترصدك وتتقصدك"... بالإضافة إلى المفرادات المتناثرة من (عينة الهالة زفت، الهالة طين، الأمريكان ولاد الفرطوس، النباح الليبرلي، أذناب أمريكا، جواري أمريكا)... وأترك القارئ ليتأمل هذه الألفاظ.

أما الاتهامات فحدث ولا حرج فلم يترك تهمة إلا وألصقها بها مثل تجاوز الانتماء للبلد ونظامه الوطني، تدعيم الهيمنة الأمريكية، وتصعيد العملاء للسيطرة على مقاليد الأمور، التحريض بالضغط على السلطة الوطنية، إرضاء السادة في واشنطن، طلب التمويل من واشنطن. وفي النهاية وجه رسالة تحريضية للرئيس الذي يفصله بين قريته في برج العرب واستراحة الرئاسة كما يقول مجرد سور، أن ما تفعله هالة يا ريس زبد وسوف يذهب جفاء ولسان حاله يقول لقد قدمت المطلوب مني والباقي عليك يا ريس وعلى أجهزتك.

رابعا: أما ما يتعلق بنقد عمرو للورقة ذاتها فلا يستحق الالتفات إليه،ولم يكن هذا غرضه من كتابة مقالاته، فالورقة واضحة ومميزة وتعكس تحليلاً أميناً للواقع المصرى ويتفق على مجملها أغلب المصلحين والليبراليين الحقيقيين.. وها هي معروضة أمام القارئ مترجمة بنصها.. المسألة في النهاية أن عمرو نفذ كالتلميذ المطيع ما طلبوه منه بفجاجة تثير السخرية.

المسأله ببساطة أن هالة وأصدقاءها اكتشفوا زيف الإصلاح الذي ينادي به النظام، وما هو إلا ستار لسيطرة الأجهزة الأمنية على كل شيء في مصر لتدعيم حكم الشلة الحالي والمستقبلي.

المشهد في مصر والمنطقة العربية يدعو للحزن معركة تكسير عظام بين فاشيتين أحداهما تستعمل التخوين الوطني والاخرى التكفير الديني،(العسكر والأخوان في مصر)،(فتح وحماس)، (الأخوان والبعث في سوريا)، (كله ضد كله في لبنان في بوادر لحرب جديدة).... وكل من الفاشيتين في حالة عداء مزمن مع دعاةالأصلاح والديموقراطية والليبراليين.نظام يضرب شعبه بالحذاء في السجون والمعتقلات وأقسام الشرطة وحتى في شوارع القاهرة وبديل يوعدنا بحذاء آخر، الفرق بين حذاء العسكر وحذاء مرشد الأخوان أن الأخير حذاء حلال!!!.وفي النهاية يلومون أمريكا بحجة تراجع دعمها للأصلاح...لصالح من تتدخل أمريكا في هذا المشهد العبثي، معارضة تطلب حمايتها ليلا وتشتمها نهارا ونظام حكم يتوسل اليها سرا ويلعنها في وسائل إعلامه جهرا... نفاق يعكس عبثية المشهد.، ومن ضمن عبثية المشهد العربى نظام يقاوم الأخوان في سوريا وفي نفس الوقت يساعد قوة دينية هي حزب الله في لبنان.

الذين يستحقون الدعم فعلا ومساندة من القوى الدولية هم الليبراليون ودعاة الأصلاح الحقيقي والأقليات المحرومة من حقوقها والمثقفون المستقلون.

أتصور أن الطلاق بين هالة مصطفي والنظام توج في مقالتها الجريئة التي كتبتها في الواشنطن بوست ٢٤ كانون الأول الماضي عن سيطرة الأجهزة الأمنية على الحياة السياسية وغير السياسية في مصر.. والحنق على هالة يعود لكونها لديها صداقات متميزة مع شخصيات كثيرة مؤثره في واشنطن سواء كانوا سياسيين أو باحثين أو صحفيين وكذلك في أوروبا والنظام في مصر يزعجه جدا أي شخص يقترب من الملف الأمريكي أو الإسرائيلي فهذا من اختصاص مؤسسة الرئاسة، فهم يدللون ويتوسلون لليمين الأمريكي والإسرائيلي على أوسع نطاق أما إذا سلم أيمن نور على مادلين اولبريت أو كوندليزا رايس في قلب القاهرة فهو عميل، وإذا قبلت هالة دعوة زيارة علمية فهي ضد مصر، وإذا حصلت جمعية أهلية على دعم مالي من جمعية غربية مستقلة يلقى صاحبها في السجن في الوقت التي تنفق مئات الملايين من البترودولارات النفطية سنويا لتخريب كل شيء في مصر. هل سمعتم عن إتهام مصرى بالعمالة لدولة إسلامية أو بتهمة تلقي أموال من دولة إسلامية؟!!.

وهكذا بعد أن تم تدميرواضطهاد المصلحين والليبراليين خارج النظام يسعون إلى القضاء على المصلحين داخل النظام لتظل الساحة محصورة بين النظام والأخوان وهم على حد وصف صديقي عادل جندي " أخوة في الرضاعة"..

ما كتبه عمرو عبد السميع ضد هالة، لا أتصور أنه بسبب كتابتها ورقة عن "الديموقراطية الليبرالية" ولكن لانتقادها لأجهزة الأمن والتي بلغت ذروتها في مقال الواشنطن بوست يوم ٢٤ ديسمبر ٢٠٠٥ .

نداء إلى أغنيائنا:

حاكوا (BILL GATES)

العفيف الأخضر

"إذا قتل الفقر اليتيم ولم يجد معيلا فإن الأغنياء جناة"
(شاعر النيل حافظ إبراهيم
مترجم كتاب البؤساء)

في ١٧ /٦ / ٢٠٠٦ نشرت اليومية الفرنسية "لوفيغارو" في صفحتها الأولى العنوان التالي: "بيل غيتس يغادر ميكروسوفت لخدمة الإنسانية" قائلة: "المؤسس والزعيم العالمي لبرامج ميكروسوفت، بيل غيتس سيغادر تدريجياً وظائفه في قيادة المجموعة من هنا إلى ٢٠٠٨ كي يستطيع تكريس نفسه للمؤسسة الخيرية التى أنشأها مع زوجته Melinda. أراد الإنسان الأغنى في العالم، لكن أكبر واهب على وجه الأرض، أن يقضي وقتاً أكثر في العمل من أجل الصحة والتعليم". والأكثر إثارة للعجب والإعجاب قراره الثاني والفريد في تاريخ أغنياء العالم المعاصرين على حد علمي: تخصيص ٩٥٪من ثروته الأسطورية للعمل الخيري وتوريث أطفاله الثلاثة ٥٪ من ثروته فقط. "مؤسسة غيتس" وهبت لحظة تأسيسها ٢٩ مليار دولار لخدمة الإنسانية المتألمة. أنفقت منها حتى الآن على العمل الخيري ٩ مليارات منها ٥,٥ مليار لمكافحة الأمراض في العالم. كلما حلّ هذا الواهب النادر، تلاحظ اليومية الفرنسية، في نيودلهي أو أكر أو جوهانسبرج ينصرف لأحياء الصفيح فيها للتعرف بنفسه على حالة فقرائها. الـ٢٩ مليار المخصصة للمؤسسة تساوى نصف المبلغ الذي تقدمه جميع دول العالم الغنية كل سنة لمساعدة البلدان الفقيرة بعنوان "المساعدة على التنمية". في عام ٢٠٠٤ أنفقت المؤسسة مبلغاً مساوياً لما أنفقته منظمة الصحة العالمية على مكافحة المرض. مكافحة الملاريا،السل،الإيدز وعلى حملات التطعيم.

الزوجان غيتس يؤمنان، كما تقول لوفيغارو، بأن "التنمية الاقتصادية مستحيلة دون سكان في صحة جيدة". وهكذا استطاعت مؤسسة غيتس تطعيم ٥٥ مليون طفل ضد الأمراض. قرر الزوجان المحسنان القضاء في حياتهما على الملاريا، والدفتيريا"الخناق"، والإيدز. الزوجان المحسنان يعرفان صناعة القرار الحديثة التي مازالت شبه غائبة في أرض الإسلام. وهكذا أحاطا نفسيهما بفريق من أكثر العلماء كفاءة وخبرة لتحرير برامج علمية لتحقيق هذا الهدف كما نجحا في ضم مستشاري إدارة كلينتون لفريقهما.

كثير من الأغنياء، تلاحظ لوفيجارو، تهكموا على غيتس متهمينه بأنه يريد تبرئة ذمته بالعمل الخيري الذي يخصص له نسبة متواضعة من ثروته. أما الآن وقد قرر الزوجان تخصيص ٩٥٪ من ثروتهما الطائلة، مئات مليارات الدولارات، للإنفاق على الصحة والتعليم في العالم فقد قطعت جهينةُ قول كل خطيب.

يا أغنياء العالم العربي أرجو أن تخاطب مبادرة هذا الأمريكي العظيم وعيكم السياسي وضميركم الأخلاقي للانخراط في مسعى خيري مماثل. قناعتي العميقة والمدروسة هي أن العامل الأول لانهيارات العالم العربي المتلاحقة وعجزه عن مواكبة موجات الحداثة التي تتدفق على العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وخاصة منذ سقوط جدار برلين الذي كان آخر جدار صيني تطيح به الحداثة أرضاً، هو سوء صناعة القرار. في الدول المتقدمة، القرار تصنعه المؤسسات وخاصة المؤسسة العلمية: الجامعات والمعاهد المتخصصة حصراً في صناعة القرار. أما في العالم العربي فيصنعه الهذيان: هذيان الحكم الفردي الذي غالباً ما يجد في جمهور أمته، التي لا تقل عنه هذياناً، خير مشجع للمضي في هذيانه حتى النهاية الكارثية: إعلان عبد الناصر الحرب في ١٩٦٧، وضم صدام للكويت عام ١٩٩٠، وإعلان عرفات –أو على الأقل تشجيعه– للانتفاضة الفلسطينية سنة ٢٠٠٠، وإصرار صدام عام ٢٠٠٣ على أن أمريكا لن تحاربه وإذا حاربته فسيهزمها جيشه شر هزيمة. هذه بعض الأمثلة الصارخة على هذا الهذيان المشترك بين الأمة وحكمها الفردي.

بإمكانكم، أيها الأغنياء، تلافي النتائج الكارثية لتخلف صناعة القرار بإنشاء معاهد علمية لصنع القرار العقلاني المدروس في المجالات الإستراتيجية التي أهملت النخب الحاكمة معالجتها مثل نزع فتيل قنبلة الانفجار السكاني، إصلاح التعليم، حرمان المرأة، غير المسلم، والأقليات من حقوق المواطنة، وإخضاع البحث العلمي والإبداع الأدبي والفني للرقابة الدينية.

اجعلوا هيئاتكم الخيرية مسؤولة عن تنفيذ القرارات الواقعية التي اتخذتها في مجالات اختصاصها. أما في المجالات التي تهيمن عليها الدولة فدوركم هو أن تكونوا سلطة اقتراح لتنوير صاحب القرار بالمقاربة الأمثل للمشكلات. لا يكفي أن تقدموا القرار الذي تقترحونه خفية لصاحب القرار، بل قدموه في وضح النهار له وللنخب الثقافية والسياسية، وللجمهور العريض، ليكونوا جميعاً قوى ضغط على النخب الحاكمة عسى ولعل... أن تعود إلى شيء من صوابها إن ترك الهذيان لها صواباً. أوليات تدخلكم يقررها صناع قراركم الخيري كما فعل بيل غيتس. فيما يخصني أرى أولويتين لهما الأولوية على جميع الأولويات: نزع فتيل قنبلة الانفجار السكاني، التي تأكل الأخضر واليابس، وإصلاح التعليم والتعليم الديني المنتجين للعاطلين وأنصاف الأميين، والإرهابيين والمصفقين للإرهاب.

القنبلة السكانية هي التحدي الأول للتنمية في العالم العربي. نصف المجتمع من النساء المحرومات من العمل، عادة من الأمهات الأميات المتخصصات في إنتاج الأفواه اللامجدية. ونحو نصف السكان من الأطفال دون الخمس عشرة سنة. معنى ذلك أن الأقلية العاملة تنفق على غير المنتجين نساء ورجالاً وأطفالاً. والادخار، عصب الاستثمار، في أدنى مستوياته، والرساميل تفكر مرتين قبل الاستثمار قرب براميل البارود، وجواذب الاستثمار، وفي المقدمة منها عمال القرن الحادي والعشرين: التقنيين، المهندسين، الباحثين، العلماء والأطباء، نادرون. والقلة المتوفرة منهم لا ترى لها مستقبلاً إلا في الهجرة القانونية أو السرية إلى الغرب، المرهوب والمرغوب، كما يقتضي قانون فصامنا الجماعي. فشل صناع القرار –باستثناء صناع القرار التونسي –في نزع فتيل القنبلة السكانية جعل متوسط معدل النمو الاقتصادي في العالم العربي ٣٪ ومتوسط معدل النمو السكاني ٣,٣٠ هذا المعدل يتطلب أن يكون متوسط معدل النمو الاقتصادي الضعف + ١ معنى ذلك اقتصادياً عجز بنيوي عن التنمية المستدامة التي هي اليوم مطلب البشرية. وفي المقابل تنمو جميع العوامل السالبة بمعدلات هندسية: الفقر وما تحت الفقر، التهميش، البطالة، الأمية، الجهل، المرض، أزمة السكن وانهيار البنية التحتية والبيئة، الجنوح، غياب الوعي بحقوق الإنسان والمواطن، تأبيد النظرة الدينية الدونية للمرأة، وغير المسلم، والحقد على الغرب "الكافر"،"الاستهلاكي"، و"المبذر"، تفاقم الفوارق الاجتماعية بين الفقراء والأغنياء في كل بلد وعلى الصعيد العالمي. عواقب قنبلة الانفجار السكاني هذه تشكل توابل الإرهاب، والفوضى المحلية، الإقليمية والدولية الدامية: التي لاحت نذرها في الصومال وفي عشرات دول الجنوب التي انهارت فيها الدولة عملياً أو بدأ الانهيار يدب إليها. أعتقد أن هذه الوقائع تشكل مبررات كافية لإعطاء الأولوية لنزع فتيل قنبلة الانفجار السكاني. تشكيل فرق بحث مختصة من الديمغرافيين لدراسة التجارب الصينية، الهندية والتونسية لاقتراح حلول لمعضلة الانفجار السكاني وعواقبها، مهمة راهنة بالنسبة للأغنياء الواعين بأن مستقبلهم ومستقبل أبنائهم رهن بحل المشاكل المزمنة التي تأخذ بخناق أممهم التي تزداد فقرا بقدر ما يزداد مصاصو دمائها غنى.

التعليم: قال الملك محمد السادس واصفاً التعليم بمملكته بأنه يعلم الأجيال الطالعة: "الرد على الأسئلة الصعبة بأجوبة سهلة". وشخص الأمير طلال بن عبد العزيز التعليم في السعودية والعالم العربي تشخيصاً دقيقاً: "نظام التعليم في بلدان العالم العربي هو سبب البلاء والتخلف الكبير الذي نشهده في مختلف المجالات" (القدس العربي ٢٠٠٦/٥/٥) وكان بإمكانه أن يضيف وعداء المواطنة الكاملة للمرأة وغير المسلم والتحريض على الجهاد والكراهية. ألا يقرأ التلميذ السعودي في مناهج التعليم الديني: "إذا كنت في دار الكفر للتجارة أو للدراسة أو للتطبب فأقم بينهم وأنت تضمر العداوة لهم"؟ (انظر مقالي: كيف ننتقل من المدرسة السلفية إلى المدرسة العقلانية؟ إيلاف ٢٠٠٤/٤/٣٠).

كمياً: قنبلة الانفجار السكاني تجعل مدرسة SCOLARISATION- جميع الأطفال استحالة. وهكذا فأكثر من ثلث الأطفال لا يدخلون المدرسة، والثلث يغادرها قبل إنهاء التعليم الإعدادي أو الثانوي، ونسبة كبيرة من المتسربين من المدرسة يسقطون في الأمية. نوعياً: محتوى المناهج يحيل المسلم المسالم إلى عنيف، والعنيف إلى إرهابي. فضلاً عن تكفير قيم الحداثة وغرس بذور الكراهية، والجهاد في "الكفار" إلى قيام الساعة.. يكوّن التعليم جيوشاً مصابة بطاعون عداء عصرها ومعاصريها بدلاً من تكوين عمال القرن الحادى والعشرين الضروريين لكم، أنتم الأغنياء، قبل غيركم.

في عصر ثورة الاتصالات، وهذا ما سيؤكده لكم خبراؤكم، الدراسات الأكاديمية التي لا تنتشر بين النخب ولا تصل إلى الجمهور العريض ليتبناها ويدافع عنها محكوم عليها بأن تظل حبراً على ورق. لذا عليكم التفكير في إيصال برامجكم ودراساتكم الميدانية وقراراتكم المدروسة إلى أكبر عدد من الناس عبر مواقع الانترنت، الإذاعة، التليفزيون، والصحافة، والمجلات المتخصصة. دعاة الظلامية منكم أنشئوا "الجزيرة" و"اقرأ" و"المنار" ...فكيف لم يرد حتى الآن عليهم رواد التنوير منكم بجزيرة، واقرأ،ومنار في الاتجاه المعاكس؟.

أيها الأغنياء

لا أقول لكم خصصوا ٩٥٪ من ثرواتكم للعمل الخيري، لانتشال بلدانكم من الهاوية التي سقطت فيها أو تتقدم إليها بخطي حثيثة، ولا أقول لكم خصصوا ٥٠٪ منها لإخراج شعوبكم من الهمجية إلى الحضارة، ولا أقول لكم خصصوا لهذا الهدف الجليل نصف أرباحكم فقط. بل فقط أقول لكم اسألوا الاختصاصيين واستمعوا إلى ما تمليه عليكم ضمائركم ووعيكم السياسي لتحاولوا انتشال أممكم من التأخر التاريخي الذي تكابده منذ قرون،ومن تفكك نواة نسيجها الوطني فضلاً عن عجزها المزمن عن صهر قبائلها وطوائفها المنغلقة على نفسها في دول قانون حديثة، فيدرالية أو لا مركزية، تعطي لكل ذي حق حقه حتى تنصرف للتنمية بدلاً من الانصراف إلى قمع أقلياتها القومية وطوائفها الدينية ومواطنيها مهضومي الحقوق.

كيف لم يستيقظ حتى الآن ضمير الأغنياء الفلسطينيين لتكوين صندوق تضامن وطني، على غرار صندوق التضامن الوطني التونسي ٢٦/٢٦، لإطعام شعبهم الذي يبحث في المزابل عما يسد به الرمق؟! ٤٣٪ من الأسر في غزه تكابد الفقر، و٥١٪ تكابد ما تحت الفقر! مثل هذه المبادرة ستكون أفضل مدخل لرجال الأعمال الفلسطينيين لمحاولة إنقاذ السلطة الوطنية الفلسطينية من ديكتاتورية الميليشيات التي شبت على القتل والفوضى، وإذا تركت لمنطقها الخاص، فستشيب عليها. أين منيب المصري، الناطق باسم أغنياء فلسطين، لمساعدة أبناء شعبه على الإفلات من المجاعة وفوضى الميليشيات؟.

دور العمل الخيري ودور الإحسان للعلم والأدب والفن مدعوان لتعويض –أو على الأقل تكميل –دور الدولة والهيئات الدولية. يقول جاك أتالي، رئيس معهد المستقبليات الفرنسي، أن العولمة، فضلاً عن أزمة الدين العام، أضعفت دور الدولة في الإنفاق على البحث العلمي والثقافة. من هنا ضرورة العودة إلى إحسان Mecenat الأغنياء الذين مولوا في القرن الخامس عشر عملية الترجمة العودة والتأليف لتأسيس عصر النهضة الأوربي الذي كان المحطة الأولى لعملية الحداثة التي لا تكتمل أبدا.

دور عملكم الخيري في مكافحة الآفات التي يكابدها عشرات الملايين من مواطنيكم، ودور إحسانكم للعلم والأدب والفن في النهوض ببلدانكم رهن ببعد نظركم ويقظة ضميركم وإرادتكم الصادقة في الإقتداء بتجربة بيل غيتس التي دشنت منعطفاً جديداً في تاريخ البشرية: تفوق المبادرة الخيرية الخاصة على مبادرة الدولة -الأمة والأمم المتحدة معاً في التصدي للتحديات الكبرى التي تتحدى الإنسانية المعاصرة تحدي البقاء أو الفناء لترجيح إمكانية تقدم جديد إلى المستقبل على إمكانية نكوص جديد إلى الماضي الهمجي: ماضي حروب الديانات. عادة الناس، أفراداً وجماعات، يتصرفون بالمحاكاة. فحاكوا بيل غيتس في معجزته الخيرية.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
(المتنبي)